«تجبُ إبادتُهم بأسلحةِ الدمار الشامل»: عن الحقدِ المتنامي في تركيا ضدّ الأكراد

□ تانل بورا
ترجمه عن التركيّة: بكر صدقي

قامت الإيديولوجيا القوميّة الرسميّة في تركيا أو التيّارات القوميّة البارزة، على السواء، بتعريف المشكلة الكرديّة في أنساق مختلفة: بربطها ببقايا العلاقات الاجتماعيّة قبل الحديثة، ومن ثمّ بكونها مشكلةً مرتبطةً بالرجعية الدينية؛ أو بوصفِها مشكلةً تنمويّة؛ أو مشكلةً انفصاليّة مدعومةً من الخارج ومرتبطةً أيضًا بالخطرِ الشيوعيّ؛ أو الأمور كلّها معًا.

كانت المقاربة المشتركة بين جميع هذه المقاربات هو الميل إلى الصهرِ القوميّ: فإمّا أنّها كانت تنْكر وجودَ الأكراد تمامًا وتعتبرُهم أتراكًا أصلاً، أو تفترضُ قابليّتَهم للصهرِ والذوبان. ويمكن القولُ إنّ هذا الخطاب ظلّ ساريًا طيلةَ «الحرب ذات الكثافة المنخفضة» التي بدأتْ منذُ صعودِ حزبِ العمّالِ الكردستانيّ في منتصفِ الثمانينيّات، واستمرّتْ إلى حينِ اعتقالِ قائدِهِ عبد الله أوجالان في أواخرِ التسعينيّات. ولم يقتصر الأمرُ على الخطاب القوميّ الرسمي، بل إنّ الحركة القوميّة الراديكاليّة التي تغذّتْ على تلك الحرب (وتتمثّل في حزبِ الحركة القوميّة MHP والتيّارِ العقائديّ ülkücüler) واصلتْ هي أيضًا خطَّ الصهر والتذويب. ونجدُ خلاصةَ هذا الموقفِ في الشعارِ القائل «التركُ والكردُ إخوة/ مَنْ يفرّقهم خونَة.» ولكنْ بموازاة ذلك، كان الخطابُ العرقيُّ [النابذُ للكرد] هو الشائع ضمنًا وخفيةً في القاعدة الاجتماعيّة ذاتِ الميولِ القوميّة المتشدّدة.

السنوات الأولى منَ الألفيّة الجديدة، التي شهدتْ تطبيقَ تركيا للإصلاحات المطلوبة منها شرطًا للانضمامِ إلى الاتّحاد الأوروبيّ، كانت «سنواتِ السبات» بالنسبة إلى المشكلة الكرديّة، أو مرحلةَ «السلامِ السلبيّ» وفقًا لتعبيرِ مدحت سنجار. لكنّ خيبةَ الأملِ الناجمة عن بقاء تلك الإصلاحات في مستواها الشكليّ، والبؤسَ، وغيابَ الأفقِ لدى الكتلِ الشعبيّة الكرديّة، وعودةَ حزب العمّالِ الكردستانيّ إلى الصراعِ المسلّحِ الذي ازدادَ نزوعًا إلى أساليب يمكنُ وصفُها بـ«الإرهاب الأعمى،» أنهتْ معًا، في السنة أو السنتين الأخيرتين، ذلك «السلامَ السلبيّ.» كان للنزعة القوميّة التركيّة دورٌ محدِّدٌ أيضًا في هذا المآل، بسبب موقفها السلبيّ من الإصلاحات المذكورة التي فهمتْها تنازلاً عن «السيادة القوميّة.» في هذه الشروط ثمة خطرٌ، من وجهةِ نظرِ خطابِ القوميّة التركيّة، في أن تنقلبَ عمليّةُ الصهرِ assimilationnisme إلى عمليّةِ نبذ dissimilationnisme. ففي السنتينِ الأخيرتين لوحظَ صعودُ خطابٍ عرقيٍّ، وحقدٍ عنصريٍّ مُعادٍ للكُردِ، يتمُّ النفخُ فيهِ. ويمكن القول إنّ هذا الصعود تطوّر في ثلاثة مستويات ليست معزولةً بعضها عن بعض: النزعةُ القوميّةُ العنصريّة التركيّة، والتيّار العقائديّ (أولكوجولر) وسائرُ القوميّين الترك، والنزعة القوميّة الشائعة (الشعبيّة). في السطور الآتية سنتناول مظاهر هذه المستويات الثلاثة، ونتعرّف من خلالها أيضًا إلى النبرات المتمايزة للخطاب القوميّ.

النزعةُ العنصريّة التركيّة والعقائديّون القوميّون

تيّار القوميّة العنصريّة الذي انتشر في الثلاثينيّات والأربعينيّات، وكان في تناغم مع النزعة القوميّة الرسميّة، هو أحدُ المصادرِ الإيديولوجيّة لحزب الحركة القوميّة التركيّة MHP. تحوّلَ هذا الحزب في السبعينيّات إلى حركةٍ هامشيّة حين سعى إلى زيادة شعبيّته عن طريق تطويرِ صلاته بالحساسيّات الإسلاميّة. واستعاد حيويّتَه في التسعينيّات، سواءٌ بفضلِ ظهورِ أفقٍ لفكرةِ وحدة التُركِ العابرةِ للحدود، في أعقابِ تفكُّك الاتّحاد السوفييتيّ، أو بفضلِ ما حقّقَتْه له المشكلةُ الكرديّةُ من أساسٍ للتحريض.

كان المفكّرُ الرئيسُ للإيديولوجيا القوميّة التركيّة نِهال آتسِزْ (١٩٠٥ ـ ١٩٧٥) قد انتقد المفهومَ الرسميَّ للقوميّة القائمة على أساسِ المواطنة وعلى نزعة التذويب الملازمةِ لها. فقد قال بفظاظةٍ شديدة إنّ «**الكُردَ موجودون**...، وهم مخلوقاتٌ أدنى ومعاديةٌ لنا.» الكردُ بالنسبة إليه «فرعٌ جبليٌّ بدائيٌّ وهمجيّ من الفُرس، يتحدّثون بفارسيّةٍ ركيكة، ويميلون إلى السُّطوِ والنهب (ودميمون فوق ذلك!).»

التيّار القوميّ الذي طوّر، في سنوات الألفيّة الجديدة، «يقظَتَه» التي بدأتْ في التسعينيّات، وله حضورٌ نشطٌ على شبكة الانترنت، ما زال إلى اليوم تيّارًا حديًّا متطرّفًا. لكنّنا نلاحظ أنّ خطابه و«مقولاتِهِ» تحظى بشعبيّةٍ متصاعدةٍ، قائمةٍ على الحقد الموجَّه ضدّ الأكراد. هناك نقطة تستحقّ أن نتوقّف عندها، وهي أنّ انتشار هذا الخطاب القوميّ العنصريّ يعكس الحقدَ الذي نفّذَ إلى مشاعرِ الناسِ اليوميّةِ واكتسبَ شعبيّتَه بهذهِ الطريقة، بعيدًا عن الاهتمامات السياسيّةِ الظرفيّةِ كاحتمالِ قيامِ دولةٍ كرديّةٍ في شمالِ العراقِ وما إلى ذلك.

هناك ظاهرة لافتة نراها في ما يُنشرُ على الإنترنت من تصريحاتٍ أو مناقشات، وفي الرسائلِ التي تُرسَل بكثافة إلى تلك المواقع، وفي تعليقات القرّاء المُرسَلَة إلى المواقع الالكترونيّة للصحف اليوميّة، وهي كتابة الحرف الأوّل في كلمة «كرد» أو «كردي،» بصورةٍ منهجيّة، بالحرفِ الصغير [وهما في التركية من أسماء العَلَم التي تجب كتابة حرفها الأول كبيرًا – المترجم]. ومن الشائع في حياة الناس اليوميّة التحدّثُ عن فظاظة الكرد وهمجيّتِهم وعدوانيّتِهم. ويُنظَر إلى ملاحقتهم لـ «نسائنا» بوصفها أبرزَ تجلّيات الخطرِ الكرديّ وما يؤدّي إليه من انحطاط... أو بالأحرى يُشكّل الخوفُ من ملاحقتهم لـ «نسائنا» أيسرَ السُبُلِ وأضمنَها لاستفزاز النزعة العنصريّة المعادية للكرد. (علينا أن نقولَ إننا نلاحظ ما يوازي هذا في الخطاب القوميّ الكرديّ أيضًا). فحوى الرسالة الرئيسة في «قضيّة البنات» هذه مواجهةُ «اختلاط الأعراق،» وبخاصةٍ وجوبُ عدم إختلاط الدّم الكرديّ بالتركيّ، وأنّ الأتراك متنبّهون إلى ذلك سلفًا. هذا يعني رفضَ الصورة النمطيّة الشائعة، التي حظيتْ بالتشجيع الرسميّ، عن الزيجات المختلطة على مدى قرون، وعن الأخوّة وقرابةِ النَسَبِ والتشبيهِ الشائع عن كونِ الكُردِ والترك «كاللحمِ والظُفْرِ» لا يمكنُ الفصلُ بينهما.

هناك فكرة موازية وهي أنّ الكُرد ميّالون بالفطْرة تقريبًا إلى ارتكاب الجرائم، وأنّهم بهذهِ الطريقَة يكتسبون القوّة. هناك حملة قائمة منذ فترة طويلة على تداولِ نصٍّ بصياغاتٍ مختلفة، يتناول هذا الحكمَ النمطيَّ المسبّق بصورةٍ مفصّلة، ويحملُ عنوانًا فصيحًا بذاته: «**كلُّ أنواعِ الجرائم يرتكبُها الأكراد.**» سأقتبس مقطعًا طويلاً من هذا النصّ الذي يرسم صورةَ الأكراد بأسلوبٍ يذكّرُنا بالخطاب المعادي للساميّةِ في مفصلِ القرنينِ التاسع عشر والعشرين، بوصفهم أولئك الذين يستولون على الثروات بوسائل لاأخلاقيّة، بل بوصفهم جراثيمَ يدفعون بالأخلاق الاجتماعية حيثما انتشروا أو «سَرَوْا» إلى الانحطاط.

«تبيَّنَ أنّ من قاموا بعملياتٍ إرهابيّة، ففجّروا القنابلَ في اسطنبول، هم أكراد. الإرهاب هو المهنة التي توارثَتها الأكرادُ أبًا عن جدّ. هل يتوقّفُ الأمرُ عند هذا الحدّ؟ لا... فالأكراد هم الذين يرتكبون كلَّ أنواع الجرائم في عموم تركيا. وحدهم الأكرادُ هم مَنْ يقومون بكلّ الأعمالِ القذرة، كالنشْلِ والسرقةِ والاغتصابِ والسَطوِ والقتلِ والدعارةِ والتسوُّلِ وتجارةِ المخدِّراتِ وإدارةِ دُورِ البغاءِ والملاهي الليليّةِ وأماكنِ لعبِ القمارِ ومواقفِ السيّارات غيرِ الشرعيّة...

«لماذا مَنْ يُطلَقُ عليهم المافيات، في كلّ أنحاءِ تركيا، هم من الأكرادِ حَصرًا؟.... ذاك الذي يبرزُ أمامنا لحظةَ نركنُ سيّارتَنا قرب الرصيف، ويطالبُنا بالنقود، ثمّ يَخدشُ طلاءها في غيابِنا بسكّينٍ إذا امتنعنا عن الدفع، لماذا هو كرديٌّ دائمًا؟... وأولئك الذين يلتصقون بنوافذ سيّاراتنا عند إشارة المرور الحمراء ويتسوّلون، لماذا هم دائمًا أكراد؟... وتلك المخلوقات الجشعة التي تتراوح أعمارُها بين عشرِ سنواتٍ وخمسَ عشرةَ سنةً وتلتصقُ بنا في الشوارعِ كالحلزوناتِ تطلبُ النقودَ، فإذا لمْ نعطِها شتمتْنا، لماذا هي دائمًا من الأكراد؟...

«القوّادُ الكبير، جمعة قارصلي، المشهور بلقب 'ملكِ دُورِ البغاء' بسبب إدارته لدُور البغاءِ في مدنٍ كبرى كاسطنبول وأنقرة وأضنة، لماذا هو كرديٌّ لا من جماعةٍ أخرى؟... لماذا ٧٣ في المئة من العاملات في دُور البغاء، وفقًا للإحصائيّات الرسميّة، هنّ من جنوب شرق الأناضول؟...

«هاكان كارايافوز، الملقّبُ بـ 'مُنْحَرِفِ الآنيا'، واغتصبَ أربعة سيّاح هولنديّين (أحدُهم رجل) وقتلَ اثنينِ منهم، وفَضَحَنَا بذلك أمام العالم بأسره، لماذا هو كرديّ؟ وعاملُ البناء رجب إيبك، الذي خنقَ الطفلة التركيّة آفشار سلا تشالديران (١١ سنة) بواسطةِ حبلٍ في منطقةِ سوسورلك، ثم اغتصب جثّتَها، لماذا هو كرديّ؟...

«خلاصةُ القول، ليست 'المشكلة الكرديّة' عبارةً عن مشكلةِ حزب العمّال الكردستانيّ، أو نتيجةً لتحريض الدول الغربيّة، كما يحاول البعضُ تصويرَها. بل المشكلة هي أنّ الأكراد هم مَنْ يقومون بكلّ أنواع الأعمال القذرة والجرائم الوضيعة على الأراضي التركيّة عمومًا. القوى الإمبرياليّة لا تقوم بتحريض الكرديّ على إدارة دُورِ البغاء أو الملاهي الليليّة أو أماكن لعب القمار، ولا تشجّعُه على تشكيلِ عصاباتِ المافيا أو بيع المخدِّرات أو القيام بعمليّات النشل والسرقة واستثمارِ الأرصفة بصورةٍ غيرِ شرعيّة لابتزازِ أصحاب السيّارات، ولا على اغتصاب النساء. كذلك لا علاقة تربطهم بحزب العمّالِ الكردستانيّ... إنهم يرتكبون كلَّ هذه الجرائم استجابةً لنداء الدم الذي يدورُ في عروقهم.» (انتهى الاقتباس)

هناكَ أيضًا حضورُ الكرديّ في المستوى الثقافيّ، وهو حضورٌ يُنظر إليه كخطرٍ يهدّدُ بتضييق مساحات الحياة على الأتراك. على سبيل المثال هناك نجومُ غناء من ذوي الشعبيّة الواسعة، من أصولٍ كرديّة مع أنهم يغنّون بالتركيّة، كـ «السوبر ستار» إبراهيم تاتليسس، يُنظَرُ إليهم كخطرٍ على الهويّة التركيّة يهدّدُها بالهيمنة الثقافيّة عن طريقِ حملةٍ منظّمةٍ «**لحقنِ الناسِ بالإعجابِ بالأكراد.**»

سببُ بلوغ الخطر الكرديّ درجةً استدعتْ إطلاقَ صفّارات الإنذار، في رأي القوميين الأتراك الذينَ يقودونَ حملةَ العداءِ العنصريّ هذه ضدّ الأكراد، هوَ «**أنّ كلَّ الأقليّات في تركيا تمارس نزعاتِها القوميّة بكلّ ارتياح تحتَ يافطاتِ 'حقوقِ الإنسانِ وحريّةِ**

الفكرِ والمعتقد والديموقراطيّة، في حين أنّ العنصرَ المؤسِّسَ للوطن التركيّ، أيْ الأتراك، إذا مارسوا نزعتهم القوميّة، عُدَّ ذلك 'عيبًا' حينًا و'جريمةً اجتماعية' حينًا آخر.» ويرى هذا الخطابُ القوميُّ العنصريُّ أنّ الحركة القوميّة الراديكاليّة (حزب الحركة القوميّة MHP والتيّار العقائديّ Ülkücüler)، بتبنّيها فكرةَ التذويب القوميّ، ساعدتْ على إضعاف الرابطة القوميّة عند الأتراك.

من المحتملِ أنّ هذه الدعاية العنصريّة التركية يتمُّ استخدامُها من قِبلِ أناسٍ مرتبطين بجهاز الحرب غيرِ النظاميّة في الدولة، في حملةٍ موجّهةٍ إلى التيّارِ القوميّ العقائديّ، أداةً للتلاعب والتحريض. وعلى الرغم من هواجسِ حزب الحركة القوميّة MHP المتصاعدةِ بصدد الخطرِ الذي يهدِّد الأمّة، وعلى الرغم من لغته التي تزداد تعصّبًا، فما زال موقفُهُ «الرسميّ» في نظرِ القوميين العنصريين متمسّكًا بخطِّ التذويب القوميّ الذي بات موضوعَ سخريتهم.

في موازاة الخطاب العنصريّ الموصوف أعلاه، يمكن الحديثُ عن وجودِ أوساطٍ قوميّة منفتحة على الحوارِ في أقلِّ تقدير. «المنتدى العقائديّ،» الذي يشكّلُ المنظّمةَ الشبابيّةَ للحركة، لا يتورّع عن وصف الأكراد بأنّهم «عشائر بدائيّة ارتهنتْ طوال تاريخِها لمختلف القوى وهزّتْ لها ذيلَها،» وذلك بمناسبةِ التطوّراتِ في شمال العراق، أي احتمالِ قيام دولةٍ كرديّة بدعمٍ من الولاياتِ المتحدة. وفي نشرات هذه المنظّمةَ نرى الأحكامَ المسبّقة العنصريّة التي تحمِّل الأكرادَ مسؤوليّةً جرميّةً في ما وراء الأحداث السياسيّة، بحقدٍ موجّهٍ ضدّ الأكرادِ بالمطلق، ومنتشرٍ في حياة الناس اليوميّة.

بين قوسين: «اليسار القوميّ»

في تركيا أيضًا خطابٌ «يساريّ قوميّ» يعرِّف نفسَه بمناهضةِ الإمبرياليّة وبالنزعةِ الوطنيّة، ويميِّزُ نفسَه، على هذا الأساس، من النزعةِ القوميّة الإثنيّة ـ الثقافيّة ذاتِ المرجعيّةِ الدينيّة. وفي السنوات القليلة الماضية، عبَّر هذا الخطابُ عن نفسه، من جهةٍ أولى، على أساس العلمانيّة، في مواجهة الإسلاميّةِ الصاعدة، وتحفّزَ من جهة ثانية ضدَّ «العولمة،» وكَيْف شعاراتِه المناهضة للإمبرياليّة على ضوء التهويل من أنّ الاتحاد الأوروبيّ يريد تحويلَ تركيا إلى مستعمَرةٍ تابعةٍ له. هذا الخطاب الشائع ضمن نطاق تأثير حزب الشعب الجمهوريّ، الموصوفِ زورًا بالاشتراكيّ الديمقراطيّ، ظهر في الشروط التاريخيّة لعقد التسعينيّات، كردّةِ فعلٍ على النزعة الانفصاليّة الكرديّة. الحقدُ الموجَّهُ ضدّ الأكراد يجد الأرضيّةَ المناسبةَ لإعادة إنتاجه في أوساط هذا اليسار القوميّ أيضًا. ففي الوقت الذي يُتّهَمُ فيه الأكرادُ، في هذه الأوساط، بأنّهم «أداةٌ في يد الولايات المتحدة والإمبرياليّة،» نلاحظ أنّ وصمَهم بوصمةِ «الآخر،» المقابلِ لصورةِ «المدنيّة» الكماليّة ـ الحداثويّة، شائعٌ إلى حدٍّ كبير.

تبلغ هذه النزعةُ نهايتَها القصوى في المجموعة المتحلِّقة حول مجلة **اليسار التركيّ**. في أعدادها التي سبقَت الانتخابات المحليّة في العام ٢٠٠٤، ناشدتْ مناصريها التصويتَ لصالح المرشّح **التركيّ** الأوفرِ حظًا حيثما تمتَّعَ الحزبُ الممثلُ للأكراد DEHAP بشعبيّة قوية. وحمل غلافُ عدد شباط ٢٠٠٥ من المجلة هذهِ الجملةَ: «ستكون كركوك مقبرةً للأكراد.» في مجموعة مجلة **اليسار التركيّ**، أو في المنظّماتِ «القوميّة ـ الاشتراكيّة» ذاتِ الجذورِ الماويّة كحزب العمّالِ التركيّ، نلاحظ التهويلَ الشوفينيَّ ضدَّ الأكراد وقد اكتسى، بين السطور، بأحكامٍ مسبّقةٍ عنصريّة.

القوميّة الشعبيّة العاديّة

فيما وراء النتاج الإيديولوجيّ النسقيّ ذي الدوافع السياسيّة، هناك أيضًا حقدٌ كامنٌ ضدّ الأكراد في الخطاب القوميّ الشعبيّ الشائع، يتغذّى أيضًا على المؤثّرات «المتطرّفة» المذكورة أعلاه. يتمثّل أحدُ وجوه هذه النزعة العنصريّة في خطاب «التُّرك البيض» الذي يرى في الكرد «جوهرَ» الفظاظة والهمجيّة، في استئنافٍ للتنميطِ التقليديّ الذي يلخِّصُه تعبيرُ «كرو» التحقيريّ. (نمطُ الكرديِّ في بعض المسلسلاتِ التلفزيونيّة يعزِّزُ هذهِ الصورة). على سبيلِ المثال، أبدى الإعلامُ اهتمامًا كبيرًا، في الأشهر الأخيرة، بـ «إرهاب الكاب ـ كاتش» (خطفُ الأشياء عنوةً من يدِ المارّة والهربُ بها)، فأدّى ذلك إلى استقرارِ حكمٍ مسبّقٍ في الأذهان، يُحَمِّلُ الكردَ الجرائمَ الوضيعةَ في المدن الكبرى، وعلى رأسها الكاب ـ كاتش.

بين الذين يراقبون هذا الحقدَ المتصاعدَ بنوعٍ من «التفهّم،» وإنْ لم يبرِّرُوه، أشخاصٌ لا يربطهم بالنزعة القوميّة «الراديكاليّة» رابط.

تتمثّل المشكلة في الجذور العميقة لذهنيّةٍ جَعلت النزعةَ القوميّةَ أمرًا **مألوفًا وطبيعيًا**. كما يظهرُ ذلكَ في تعبيرِ «**الانعكاس اللاإراديّ القوميّ**» (national reflex) الذي يُستخدم ببساطةٍ ـ كما لو كان انعكاسًا شرطيًا طبيعيًا! ـ من دون النظر، من مسافةٍ نقديّة، إلى الديناميّات والأواليّات القويّة العاملة على إعادة إنتاجها كإيديولوجيا؛ ومن ثم الاعتقاد بأنّ عقلنةَ النزعة القوميّة أو «تأهيلَها» نوعٌ من الحِمْية الصحّيّة. فعلى المرء أن يضبطَ نفسَه كي لا يفقدَ السيطرةَ على «غريزته» القوميّة. ولكن ليتمكّنَ المرءُ من هذه السيطرة على النفس، فإنّه ينبغي ألاّ توجدَ عواملُ تستفزّ مشاعره القوميّة. من وجهة النظر هذه، تتوقف «تهدئة» النزعة القوميّة التركيّة، أو تخلّيها عن حقِّ **الاستثارة** ـ ويُعَدُّ هذا التخلي ثقافةً ـ على ركودِ النزعات القوميّة «الأخرى.»

الكرد بوصفهم الآخرَ الأساسي... والحقد

كتبَ مسعود يكن في كتابه، **من تركيّ المستقبل إلى المواطن المزعوم**، أننا نمرُّ في مرحلةٍ أصبحتْ فيها الهويّةُ القوميّةُ الكرديّة تمثّلُ الآخرَ **الأساسيَّ** الذي تتموضع إزاءه الهويّةُ القوميّةُ التركيّة. لم تكن الحال هكذا بعدُ أثناءَ مرحلة الحرب ذات الكثافة المنخفضة. فالخصومة التي نمَتْ خفيةً ظلّت في المستوى المحليّ ولم تتعمّم بعدُ. بعد إلقاء القبض على أوجالان، كان يُتَوقّع أن تهدأ هذه «الخصومةُ غيرُ المعمَّمةِ بعدُ.» لكنّ العكس بالضبط هو الذي حدث. أسبابُ ذلك واضحة: أوّلُها التطوّراتُ في شمال العراق (أي احتمالُ قيام دولةٍ أو كيانٍ دولتيّ كرديّين هناك)؛ وثانيها مسارُ الانضمام إلى الاتّحاد الأوروبيّ الذي من شأنه أن يفتحَ الطريقَ أمام الاعتراف بالهويّة القوميّة

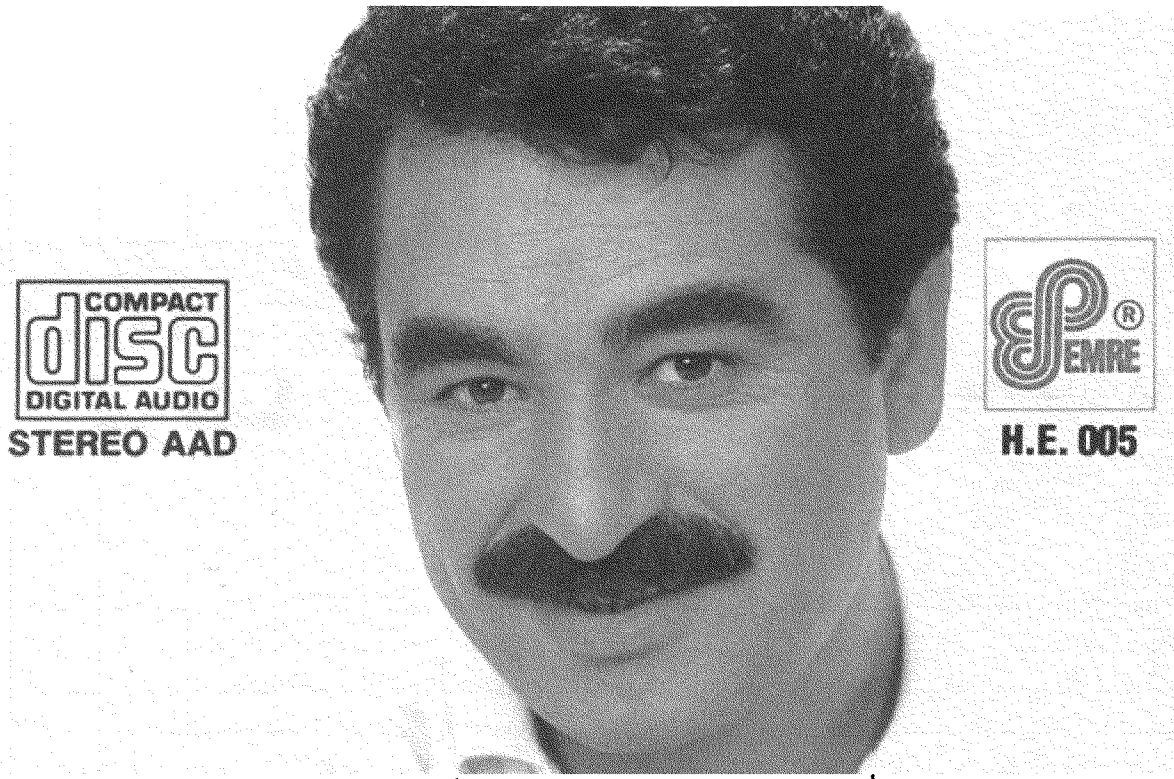

هناك نجومُ غناء، من أصولٍ كرديّة مع أنهم يغنُّون بالتركيّة، كـ «السوبر ستار» إبراهيم تاتليسس، يُنظَرُ إليهم كخطرٍ على الهويّة التركيّة

الكرديّة، ومن ثم ازدياد صعوبة النظر إليهم كجزءٍ من الهويّة التركيّة **على الرغم من كلّ شيء**. فبهذه الطريقة يزداد الشعورُ بعدم الثقة بالكرد في نظرِ النزعة القوميّة التركيّة، ويزداد منسوبُ الارتياب في قابليّتهم للتماهي مع الهويّة التركيّة. إنّ النظر إلى الأكراد بوصفهم الآخرَ الرئيسيّ ـ ودائمًا بحسب رأي مسعود يكن ـ يؤدّي إلى تهديدِهم بوضعٍ يكونون فيه دستوريًا «مواطنين من الدرجة الثانية» كحالِ الأقليّاتِ غيرِ المسلمة (منذ معاهدة لوزان)، أو إلى ردودِ فعلٍ من نوع محاولة إخراجهم من حمايةِ مظلّة الإسلامِ المشترك، بنَسْبِ «اليهوديّةِ» إلى جذرهِم العرقيّ.

على امتداد حديثنا عن القوميّة والعنصريّة في هذا النصّ، تواترَ استخدامُنا لمفهوم **الحقد**. والحقد، قبل كلّ شيء، هو «**التسميمُ الذاتيّ للذهن**» وفقًا لماكس شيلر. وكتب أورهان كوتشاك في مقدّمته لكتاب شيلر: «**[الحقد هو] حين لا يكتفي الشخصُ بإنكارِ القيمةِ الموجودةِ في الفردِ أو المؤسّسة أو العملِ أو الموضوعِ الذي أمامَه، بل يكادُ لا يراهُ فعلاً ولا يعيهِ من حيث المبدأ.**» في ردود الفعل الموجّهةِ إلى الأكراد، نُلاحظ انسدادًا أو عماءً من هذا النوع. يربط شيلر الحقدَ بمشاعرِ العجز، ويؤدّي كبتُ المشاعر الثأريّة ـ الموجّهةِ إلى القوة أو الحالة أو الذات والتي تثير الشعورَ بالعجز ـ إلى ردِّةِ فعلٍ حاقدة (ressentiment).

إن إقامةَ علاقاتٍ غيرِ مباشرة، بل اختزاليّة، قد تخدعنا. ولكن إذا فكّرنا في الانطلاق من هاتين الفكرتين لشيلر، فسوف نجد في سيكولوجيّة النزعة القوميّة التركيّة ديناميّاتٍ تؤدّي إلى إنتاج الحقد: نقصُ الإشباعِ في الشعورِ بالثأر على الرغم من هزيمة «الكردِ الانفصاليين الإرهابيين،» وأنّهم «ما زالوا» يكسبون مساحاتٍ إضافيّة في الاعترافِ بهويّتهم، والعجزُ عن مواجهة ذلك (فعدمُ إعدامِ عبد الله أوجالان، مثلاً، هو موضوعُ شعورٍ دائمٍ بالحيفِ وجلدِ الذاتِ لدى التّيار العقائديّ القومي)، و«الوعيُ بالعجز» على الرغمِ من وجودِ بيئة ملائمةٍ لرفع «الراية» [رايةِ الغزو والنصر ـ المترجم]، سواءٌ بسبب تشرذم الحركة القوميّة وخلافاتِها الداخليّة، أو بسبب عجزِها عن القيامِ بحملةٍ سياسيّةٍ واسعة نحو السلطة...

علينا أيضًا أن نضعَ مسوّدةَ اللوحة السيكولوجيّة هذه للحركة القوميّة داخل عالمِها الخاصّ، في إطارٍ أوسع. فوراء شعورِ الإيديولوجيا القومية بالعجز، علينا أن نتحدّثَ عن شعورٍ مجتمعيٍّ بالعجزِ أعمّ وأوسع: العجزُ عن السيطرة على شروط الحياة، والفشل في العثورِ على مرجعيّاتٍ تُساعِدِ المجتمعَ على رؤية نفسِه كذاتٍ فاعلة، وما يؤدّي إليه ذلك من تراكمٍ للحنقِ والحقد.

إنتاجُ الحقدِ هذا، الذي لا يقتصر على المحافل الإيديولوجيّة بل نرى تجلّياتِه أيضًا في الخطاب القوميّ الشعبيّ الشائع، يشكّل في الوقت نفسه ثمنَ التهرُّب من مواجهةٍ فعليّةٍ للمشكلة الكرديّة وللمآسي التي وقعَتْ إبّان الحرب ذاتِ الكثافة المنخفضة.

تانل بورا

باحثٌ في الشؤون السياسيّة التركيّة.